

## مدن العراق القديمة

## Les vieilles Cités de l'Iraq.

إذا جاء أحد أبناء لغتنا يزور هذه الديار المباركة ، فإنه لا يجد كتاباً عربياً يصفه على مدنه القديمة ، فيضطر إذا كان من عارفي اللغة الانكليزية الى مطالعة كتاب من كتبها ، وقد وضعت احدي سيدات الانكليز واسمها دورتي مكلي كتيباً اودعته كل ما يجب ان يعرفه زائر هذه الديار القديمة بمباراة موجزة ، فأثرنا نقله الى لغتنا لينتفع به من يجهل تلك اللغة ، وقد طلبنا الى الاديب فديسان افندي م . ماريني ان ينقله الى لساننا ، فلبى طلبنا . ودونك هذه الترجمة مبتدئين باول صفحة منه ( ل . م )



## المقدمة

تختلف ارض الرافدين كل الاختلاف عن مصر و الارض المقدسة ( فلسطين ) ، اذ يرى سهل العراق المنبسطة غاية الانبساط ، اشبه اللون كشمس الغراب ، ذياك السهل الذي يتطلب وحيلاً وخيالاً ليستحسن ما فيها ، كل ذلك بعد القفار الصخرية والصفاف الشاحمة التي تسكتف وادي النيل فضلاً عن كسبان ارض اليهودية والجليل ومآب الحجرية وجبال لبنان الشاهقة المكسوة اشجاراً . ولكن لا يدوم تأثير النظرة الاولى ، ولو كان الناظر ذا خيال واعاد في تخيلته تلك الاراضي القريبة كما كانت - واعلمها ترجع يوماً الى قديم شأنها - لشعر في اللحظة بخفي جاذبيتها وعجيب مزاياها .

ولعمر الحق انها لجديرة باسم مهد البشر ، لان سكان تلك الاصقاع كانوا منذ ثلاثة آلاف سنة قبل تاريخنا هذا ( التاريخ المسيحي ) في حالة من التمدن ، ثم يصل اليها الانسان إلا بعد الوف السنين - لا بعد مئات من السنين - من الجهد والاختراع ، والفكر والعمل ، وتطور الحكم والنظام . ويرى الى هذا الحين ذاك السهل القفر محفوراً كما حفراً كأنها الشباك وهي كل ما بقي من نظام الري ، ذلك النظام الذي كان على جانب من الفخامة ، ويحق لمهندسنا ان يحمده عليه بل ويحمده عليه مهندس هذا الزمن ؛ وكانت تسقي تلك القني مزارع عظيمة جمات هذه الديار مخزن غلما الشرق . ولنعد الى خيالنا ايضاً الجدايق والجنات المحيطة

بالقرى والضياع التي ترى اخربتها في كل جانب - وترى الآن رواب منخفضة غير منتظمة مبعثرأ فوقها عدد لا يحصى من الشقف والآجر وبعض الخرز والاختام الاسملوانية . وترى احياناً سكاكين الصوان أو قطع من الرقم السمارية . وكان هناك بلدان عظام بمنطقة باسوار هائلة يمكن اقتفاء اثرها الى هذا اليوم . وحكمت كل بلدة في حينها هذه الاراضي ، وفي بعض الاوقات اصبحت سيده العالم المتمدن باسراء ، وكانت تلك العواصم غنية جداً لانها موئل التجارة ، فضلاً عن انها مركز الدين والسياسة وكمية العلماء والفلاسفة .

وغزا هلاكو وقومه المغول هذه الاراضي قبل بضعة قرون غزوة كادت تقضي على الديار جميعها ، لانهم هدموا القني فنزفدم المملكة ، واصبح العراق مذكاً الحين ، يباباً وخراباً ثم استأنف المغول سيرهم ؛ ولكن قبل ان تتماثل هذه الديار من تلك الضربة ، هجم عليها تيمورلنك القهار فاتهم خراب ما فات يد هلاكو . وبقي العراق على تلك الحالة ، لان الترك لم يقوموا بعمل يذكر في اثناء سيادتهم ليرجعوا البلاد الى سابق عمراتها .

ولم يذكر في هذا الكتيب خلاصة تاريخ ارض الرافدين ، وان كان ذلك بصورة عامة . اذ لا يمكن في اي مختصر كان ، بيان عصور هـ هذه الربوع بصورة صحيحة ، اذ اقوامها عديدة وتقلباتها غريبة . ولما كان فيها من الاديان والنحل ما اجتمع منها كتلة نشأ منها كل ما في العراق من المزايا المتنوعة . وفي آخر هذا الكتيب جدول اهم الازمنة مع تواريخها من باب التقريب وقد نقلتها من مؤلفات كسبريج للتاريخ القديم ، واني لاعترف بفضل مؤلفيها . ويطلب الى القارئ ان يراجع ذلك الجدول حين يتصفح المذكرات المختصرة المختصة بالمواقع التاريخية المتعددة التي يزورها . والملحق الحاوي اسماء الكتب يعين الزائر كل الاعانة ويضيف الى ما يعرفه من الازمنة والاماكن التي يجب الوقوف عليها اكثر من سواها .

وقد اصطلحت في تألفي هذا «الدليل» على وضعين : الاول ، تدل الكلمة «قديم» على زمان الجاهلية وعليه لم اذكر البلدان المقدسة أو البلدان التي فيها من ابيته المسلمين المهمة سواء أ كانت دينية أم غير دينية . الثاني : لم اذكر

التسيهات للوصول الى المواقع التي لها شأن في الآثار القديمة اللهم إلا اذا كان يتسنى السفر اليها أو اذا حفر في تلك الأماكن، فتأتي ابنيتها الزائر بفائدة .  
والنظام في وصف المواقع القديمة موافق نظام دائرة القطار . لان المواقع التي تقصد زيارتها تقرب من محطات القطار ويسهل الوصول اليها إلا البعض منها . وتعرض دائرة قطار العراق تسهيلات خاصة على جماعات الزوار . وفي محطة الحلة ومحطة اور ترى دور للاسترخاء يتاح لمن يرغب في النوم والغداء فيها بأسعار معقولة .

وبعد مشاهدة الأماكن التي فيها من الآثار القديمة التي تقرب من بغداد . يحسن بالزائر ان يجول في اطراف بابل وذلك بعد ان يعطرحاله في كل محطة وهو راكب القطار القاصد الى البصرة . وعندما تتم تلك السياحة ، يعود الى بغداد ، ومن ثم يطوف في مدن آشورية على حد ما عمل في رحلته السابقة .  
وبالتالي اود ان اعبر عن مزيد شكري للمعلمين : ربعة اور التي اشتركت في اقامتها المتحف البريطاني ومتحف فيلادلفية . واربعة كيش المشترك في اقامتها « اجولد » ( لاتفورد ) ومتحف « ميدان شيكاغو » ، وذلك لسماحها اياي استعمال التصويرات ، واني لاقرا ايضا بفضل بعثة كيش لاني استفدت من خريطتها لذلك الموقع التي صورت من الجو . ونظمت خريطتي لكيش من تلك الخريطة . واما خريطة آشورية وخريطة اراضي بابل ، ورسم بابل فنقلتها عن التاريخ القديم لكنبريج وعن المفكرة الرسمية الدائمة على خريطة بابل . فاعترف بفضلها ايضا .

٥٠ م

الفوائد التي يستفيدها من يقصد الزيارة

اقترح لراحة من ينوي زيارة العراق ما يلي :

١ - ان احسن موسم يذهب فيها الى العراق هو الموسم الذي يتسنى من نصف تشرين الاول ( اكتوبر ) الى نصف كانون الاول ( ديسمبر ) ومن نصف شباط الى نصف نيسان . وفي غير تلك المديتين تهبط الامطار بغزارة فتصبح تربتها تلك الاصقاع الغريلية كثيرة اللزوجة بعد ان تمتزج بالماء ، ويصادف في الاغلب برد زمهرير في الليل .

٢ - ومن الامور الضرورية للمسافر ان تكون معه حقيبة ومخدة وبسط ثم فراش خفيف يسهل رزقه . ومن لا يعرف احداً من اهل البلاد في المواقع المنفصلة لا يحصل على غير الخانات وغرف الانتظار في محطات القطار . واذ عرف احداً يخشى ان تضيق كثرة الزوار النازلين في موطن واحد ذلك الموطن الذي اصبح ملجأ لهم ، مع ان الضيافة التي يتلقاها المسافر من سكان العراق سواء اكانوا عرباً أم اوربيين تفوق الاطراء . والحقيبة كثيراً ما تزيد في راحة راكب القطار ، لان السفر فيها طويل . ولا بد من ان يكون قليل السرعة .

٣ - ويرجع استعمال صندوق خفيف للثياب عوضاً عن الصندوق الكبير الثقيل ، ولا سيما من يقطع الطريق براً الى بغداد ، ليتسنى وضع ذلك الصندوق الصغير على جانبي السيارة

٤ - ومن الضروري ليس ملابس مدفئة في السفر بالسيارة ، لان تبتدى الرحلة في اكثر الاحيان فجراً . والهواء وقتئذ يكون في الغالب بارداً قارساً حتى في اشهر القيظ . وعلى من يكون معه اوراق توصية تعرفه بانكليز في بغداد ، ان يأخذ معه ملابس الليل الرسمية .

٥ - ويجدر بالسائح ان يتخذ لنفسه كمية قليلة من العقاقير التالية : الكينين والاسبرين والكورودين والحامض البورقي وبوتاس البرمنكانات . وتفيد السكاة (الناموسية) في بعض الاحيان .

٦ - لاتفيد العدة الزائدة بل ربما تصبح حملاً ثقيلاً تعيق المسافر ، عوضاً من ان تعينه ، اللهم إلا اذا كان في نيته السكنى في الخيم .

٧ - وتتخذ دائرة قطار العراق ما يلزم اراحة جماعات الزوار . وتعد لهم عربات بفرش للنوم ، وتفصل تلك العربات عن خط القطار ، مدة يوم أو اكثر في محطة كانت اذا طلب اليها ذلك .

توطئة

لا يمكن الانسان في عصرنا هذا عصر الجهد والعمل ان يطالع على شؤون الاقدمين اليومية ، وهم قوم من اصقاع شاسعة . اللهم إلا الخبير المتخصص لذلك الموضوع . واذا قابلنا ما كان يتلقى بأمر ملجأهم والمشاكل في العصور على المواد

لبناء منازلهم. فالنسبة بين كل ذلك وبين ما نحتاج اليه من لوازم هذا الزمن الضرورية تكون زهيدة جداً. ولا يمكن للمرء ان يفكر ملياً في اسلوب البابليين في سقي حقولهم، أو في كيفية قيامهم بحروبهم التافهة، بالنسبة الى ما شاهدنا في هذه الايام. ايام الحرب العظمى. ولكن اذا راجعنا بعض المعلومات المختصة بحياة الاقدمين اليومية ومشاكلهم، يزداد حُبنا للاطلاع على مدنهم المنقرضة. فأتوقع ان ما يأتي في هذا التأليف الصغير المجهول للاحقائك التاريخية، يفيد بعض الفائدة كثيرين من اولئك الذين لا يساعدهم وقتهم على المطالعة.

اللبن وتزيينه

إن أرض العراق الأدنى الممتدة من بغداد الى البحر سهل عظيم متقوم من التربة الغريلية التي يأتي بها الرافدان الكبيران وانك لا ترى تلا ولا صخراً في هذا المنبسط الفسيح. ولعدم وجود الحجر في هذه الديار، اضطر المعمار في كل عصر، حتى في هذا الزمن ان يعتمد على اللبن ليشيد الجدران. واما السقوف فيتخذها من اغصان الشجر والحصير والتراب. ويبس اللبن الحشن الصنعة في حرارة القيظ بسرعة. ويتصاب تصلباً كلياً. وكان الاقدمون يشيدون معظم بيوتهم وقصورهم ومساجدهم وزقوراتهم (مفاتيحهم) بهذه المادة. وكانوا يجعلون الآجر في الاغلب على وجوه الجدران المتخذة من اللبن وذلك لتكون اثبت، وقد عثر على اُخريمة الاثنتين في اثناء الحفريات. ولا شك في ان اصحاب دانيال الثلاثة شدراخ وميشاخ وعبدنغو القوا في اتون من تلك الاثنتين (دانيال الفصل الثالث الآية ٢٠).

وكان لب الطرز تأثير في شكل الآجر، كما انه يؤثر في سائر الاشياء. وهذه الحقيقة هي العمون الاكبر لمستكشفي الآثار القديمة في تفسير مشكلات التاريخ القديم. وعم الاعتقاد الى هذا الحين ان صانعي الآجر الاقدمين في العراق رجحوا طرز الآجر المسمى «المسطح المقرب» على سواه (١) ويعمل ذلك في ما بين مستطيل من خشب يملأ صاهلاً معجوناً ويمتلأ ما يبرز منه بعض الصقل. ولكن الحفريات الحديثة دلت على ما يرجح الظن ان في الايام السالفة نفسها كان يصنع الآجر النخين القائم الزوايا.

(١) اي المسطح اسفله والمقرب اعلاه ويعرف بالمسنم ايضاً.

وترى في الآجر المسطح المقرب في اغلب الأحيان إشارة خاصة ، لبناً كان أم آجرأ ، وتكون تلك الإشارة بالابهام أو بالأصابع وأحياناً بالعصا . وربما كان هذا الوسم ، وسم الصانع ، يدل على مأخذ آجره .

ثم أخذ الآجر المسطح المقرب بمرور الزمان يفلطح ويخفف فظهر في عهد سرجون الأول ان حدث انقلاب سياسي مع انقلاب في تركيب الآجر ، وصنع الآجر منذ ذلك الحين على شكل مفرطح مربع . ويتضح ان سرجون - وكان رجلاً طموحاً - يفضل الضخامة في كل شيء ، والآجر والخواتم الأسطوانية الشكل التي صنعت في عهده هي من اكبر ما ترى في تاريخ العراق القديم . ويظهر ان الآجر «المسطح المقرب» لم يصنع في العهد الذي عقب دور حكم الساميين في تلك الاصفاع ، بل حل محل هذا النوع من الآجر صنف آخر ، هو مربع او مستطيل على اختلاف الأقيسة ، واصغر من آجر سرجون . كما ان الرقيم المسماري حل محل وسم الابهام او الاصبع التي كانت ترى في اول زمن الساميين ، ويذكر ذالك الرقيم في الاغاب ما قام به بعض الملوك من عمل ديني في تشييد مسجد الله أو تعميره . ويرى في رقيم الآجر المسماري ما يشي على اعمال نبو كدراسر الثاني (بخت نصر) في كل مدينة تقريباً من مدن سهل بابل .

إن الطيعة البشرية الناشئة في ارض كارض العراق الزاهية بالوان متناسبة . تأنف من تلقاء نفسها من لون اللبن الفامق وهو ما يرى دائماً . والكاشي الملون بازرق واخضر الزاهيين ، ذلك الكاشي الذي تزخرف به المساجد في هذا العصر ، يشهد جميعها بحب البهاء ، ومثل ذلك قل عن الصبغ الاصفر الفاقع والازرق البديع الفاتح اللذين يصبغ بهما معظم دور بغداد . كما ان في القدم كان لون اللبن يدل بما يحسنه لكي ينفي عن النفس وحدة لونه وذلك بلباقة في الفن ربما تفوق ما يجري في هذا الزمان . وعثرت البعثان ، بعثة كيش وبعثة اور ، على قطع بديعة مركبة بالصدف والمحار ، ومن اعجب مصنوعات الفن افريز الثيران المصنوع من النحاس الاحمر البارز الذي كشف في تل العبيد . ويظهر ان في الازمنة التي عقب ذلك العصر ، حل الآجر المدهون بالطلاء محل المصنوعات المرصعة . ولا يزال باب اشتر في بابل يدهش الناظر مع انه مجرد من كل زليج

( كاشي ) وكان هذا الباب في ابان عصره يتألق بالوانها الزاهية .  
 واما قطعة الاراضي الواقعة فوق بغداد ، تلك القطعة التي تقابل مملكة  
 الاشوريين القديمة ، فهي اسعد حظاً من سهل شنعار المنبسط . اذ انها تحتوي على  
 الحجر للبناء به ، ولا سيما ذلك الحجر المعروف « بمرمر الموصل » . وعليه كان  
 البناؤون الاشوريون يشيدون مساجدهم وقصورهم فوق مساطب عظيمة وجهها  
 حجري ، وكانوا يزينون جدران قصورهم الهائلة المتخذة من اللبن بالواح المرمر  
 ويحفرون تلك الاواح حفراً واصفين فيها ماثر الملك في الحرب والقمص .

الروابي ومعناها

لما سقطت المدن القديمة وانقرض سكانها بالحرب ، ام بسبب آخر ، خربت  
 قصورهم ومساجدهم ومنازلهم خراباً سريعاً ، اذ كانت تلك الابنية مسقفة بالخشب  
 وجدرانها من لبن وربما هدمت قصداً ، ونزع الآجر منها فحمل ليعمر به بلدان  
 جديدة . وبالحقيقة ، اصبحت بابل لاهل الحلة وبغداد « نتجم آجر » بحيث يرى  
 في حيطان كثير من بيوت هاتين المدينتين الرقيم المسحاري من عهد نبوكدراسر ،  
 ويحصل السكاس من احراق الواح المرمر المحفورة ، من زمان الاشوريين ، وقد  
 ربح قرويو منطقة الموصل بهذه الوسيلة ربحاً طائلاً .

وما بقي تم خرابه بالحرق والبرد والمطر والريح وعواصف التراب الشديدة ،  
 وبليت اقسام الجدران العليا التي لم تزل قائمة ، وملىء تراباً كل شق وذلك  
 رويداً رويداً ، كما حدث في الابنية التي حفرت مؤخرأ . ولم يبق الآن من  
 الابنية الشاحخة شيء سوى رواب كبيرة واطئة وهي تنخفض ويتساوى اسفلها  
 بمرور الزمان .

ولا يظهر اي اختلاف لمن ينظر الى تلك الآكام من باب الاتفاق ، سواء  
 اكانت اثر مدينة ام بلد ام قرية ، اذ لا يرى فرق إلا في اتساعها . بيد ان الباحث  
 عن الآثار القديمة التي يزورها ، تتجلى لها القصة بكل وضوح لما فوق وجهها  
 هذه الآكام من مواد مبشرة ، ولا سيما حوالي حاشيتها ، وتظهر تلك الاشياء  
 اما بعد امطار الشتاء ، واما بعد تنزيم الرياح للتراب . وتدل قطع الادوات المصنوعة  
 من حجر الصوان او مناجل الظران على عهد قديم ، وكذلك كسر الجرار المدهونة  
 والآجر المسطح المقرب . وتشهد شقف لوح الرقيم أو الخواتم الاسطوانية

على عصر احدث ، ويظهر ذلك ايضاً من الآجر المستطيل المسطح وكسر الجرار غير المصبوغة المصنوعة من خزف اثنى واخشن ؛ واما الآجر المطلي بدهان اخضر او ازرق ، والزجاج المصبوغ بالوان قوس قزح فيشهدان على احتلال الفرثيين أو الفرس .

وتأخذ المدينة المبنية باللبن بالخراب على الدوام ولو كانت آهلاً بسكانها . وكانت العادة كما هي الآن اذا سقطت دار من الدور المشيدة باللبن ان يمهّد موضع الخراب فيبنى فوقه بناء جديد . وفي اغلب الاحيان كان البناء الجديد يتبع خطة الجدران القديمة ، ولا سيما اذا كان ذلك مسجداً ، فتبججلاً للام لا يجري اي تغيير كان . وعليه حين يحفر الباحث عن الآثار القديمة عن موضع قديم يعثر غالباً على بقايا عصور عديدة مبنية الواحد فوق الآخر ، وتكون الطبقة السفلى هي القديمة عسراً . وعندما ينسج الطبقة الواحدة عن اختها ويدرسها ، ينكشف تاريخ الموضع شيئاً فشيئاً . وهكذا يجري الباحث في عمله عند تنقيبها حتى يأتي الى آخرها . واذا كان هناك قطع عمودي واقعاً في تل مرتفع ، فيدل ذلك بكل صراحة على نشوء مدينة وتعميرها الدائم في خلال ازمة كثيرة . ويعرف كل زمن بما يمتاز به من الآجر وكسر الجرار التي تظهر في الطبقات المتتالية ، وتكون الطبقة التي في الاعلى هي الحديثة عهداً ؛ واما الطبقة السفلى فربما ترجع الى زمن فجر التاريخ .

#### القني القديمة

اضطر اهالي ارض الرافدين الأدنى ، الى ان يعتمدوا في كل زمن الى الري لسقي حقولهم ، وذلك لان الامطار تهبط بقلتها ، وحرارة القيط شديدة يابسة ، وحفرت القني في تلك الاصقاع منذ القدم - لاسيما في ضفة الفرات اليسرى - ونقلت هذه القني الماء الى اقصى اراضي سهل شنعار ، تلك الاراضي المتقومة من تربة غنية خصبة ، وكان اعتماد الشمريين على السقي في نجاح زرعهم اعتماداً تاماً بحيث كانت كل دويلته مدن على اهبه الحرب في كل حين لمقاومة مجاورها اذا تحرشوا بما يلزمها من الماء أو قطعوا الماء عنها بتناً . وعليه اصبح تاريخ شهر بالاجمال قصة تقص نجاحاً متعاقباً وسلطة متبادلة بين عدد من دويلات المدن المتحاربة بعضها لبعض .